الملامح الثورية في الحرب العربية ـ الاسرائيلية الرابعة

المقدم الهيثم الايوبي

« تكون الحرب كما يكون القائد الذي يقودها ، وكما تكون النظرية التي تحكمها »
(كلاوزفيتز)

يعتقد القادة العسكريون الذين يخوضون الحروب أنهم غدوا خبراء في العلم العسكري ، وان تجربتهم العملية في مسارح العمليات أو في غرف هيئات الاركان تسمح لهم بتقنين الاحداث التي عاشوها ، وتحليل المعارك التي شهدوها، واستخلاص القواعد والاسس والمبادىء ، والوصول في بعض الحالات الى صياغة « القوانين » . ثم يرتكز هؤلاء القادة بعد ذلك على استنتاجاتهم ، ولمحات الضوء التي رأوها من خلال دخان المعارك ، ويصيغون عقيدة عسكرية تعدل عقيدة الحرب السابقة ، ويعتقدون ان الحرب ستجري على هديها في المستقبل ، ويعدون قواتهم المسلحة وخططهم لتتلاءم مع العقيدة الجديدة التي تمتزج فيها توقعات المستقبل مع التجربة الذاتية بكل ما فيها من سلبيات وايجابيات .

وتتبلور العقائد في فترات الهدوء بين الحروب وتترسخ ، وكلما طالت فترات الهدوء ازداد تمسك القادة بالعقائد التي وضعوها ، وازداد تلاؤم القطعات وقادة الوحدات الصغرى مع الاساليب القتالية المنبثقة عنها . وتتكون مع مرور أعوام السلم حالة ذهنية معينة وتصور خاص للحرب المقبلة ، وقد تتعرض هذه الحالة وذاك التصور لبعض التعديلات الناجمة عن المخترعات والابتكارات ، ولكنها تبقى تعديلات جزئية ، نظرا لان المؤسسة العسكرية في جميع البلدان هي أقل المؤسسات قدرة على التطور الشامل السريع ، وأكثرها تعلقا بالتقاليد والافكار المسبقة . و« لان رجال الدولة والقادة العسكريين ـ كما يقول الجنرال فولر ـ متخلفون عادة عن العلماء بما يعادل جيلين»(١) . ويتعارض هذا الامر مع التطورات السريعة التي تتعرض لها النشاطات الانسانية في جميع المجالات الاجتماعية والاقتصادية والفكرية والعلمية . ويبدو هذا التعارض كبيرا خطير النتائج في عصرنا ، عصر التحولات السريعة والمفاهيم المتبدلة ، لانه يجعل المؤسسة العسكرية ، المبنية وفق أسس معينة والمستعدة لخوض حرب تقليدية(٢) تلائم ظرفا سابقا ، تشتبك في القتال في ظروف جديدة غير متوقعة ، أو متوقعة جزئيا ، وتتعرض من جراء ذلك لكثير من المفاجآت الاليمة أو الكارثية .

ويقل حجم هذه المفاجآت ولا شك كلما ازدادت قدرة القيادات العسكرية على التوقع والابداع والعمل بخيال واسع ، بيد أن ضخامة عدد العوامل التي تؤثر على الحرب وتطبعها بطابعها ، وسرعة تحول هذه العوامل ، وظهور عوامل جديدة باستمرار تعطي عملية التوقع والخيال حجما معينا لا تتجاوزه الا اذا كان في قيادة القوات المسلحة عبقريات عسكرية نادرة (نابليون ، ديغول ، ماوتسي تونغ ، جياب ، غودريان ، رومل) قادرة على استشفاف المستقبل من دراسة الماضي والحاضر واتجاه حركة التطور المستقبلية بكل جوانبها ، والاعداد لمعركة الغد وفق معطيات الغد المتوقعة .